مركز حرمون
للدراسات المعاصرة
Harmoon Center
For Contemporary Studies

صناعة الطوائف

رسم الحدود وتطييف الانتفاضة السورية 2011-2013

الكاتب: باسيليوس زينو، Basileus Zeno

ترجمات

مركز حرمون للدراسات المعاصرة:

مركز حرمون للدراسات المعاصرة، مؤسّسة بحثية مستقلة غير ربحية، تُعنى بإنتاج الدراسات والبحوث السياسية والاجتماعية والفكرية المتعلقة بالشأن السوري والصراع الدائر في سورية وعليها، وسيناريوهات المستقبل، كما تهتم بالقضايا العربية والإقليمية.

صناعة الطوائف

رسم الحدود وتطييف الانتفاضة السورية 2011-2013

الآراء الواردة في هذه الدراسة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المركز ومواقفه من القضايا المطروحة

اسم المادة الأصلي	The making of sects: Boundary making and the sectarianisation of the Syrian uprising, 2011–2013
* الكاتب	باسيليوس زينو، Basileus Zeno
مكان النشر وتاريخه	Nations and Nationalism/Wiley Online Library، 15 آذار/ مارس 2022
الرابط	https://doi.org/10.1111/nana.12825
عدد الكلمات	10440
ترجمة	وحدة الترجمة/ أحمد عيشة

المحتويات

ملخص 5
مقدمة 6
المنهجية والأسلوب/ المنهج 9
مراجعة الأدبيات 11
الانتفاضة السورية في سياقها وروايةالنظام الرئيسة 14
من طمس الحدود إلى صنع الحدود 27
الخاتمة 30

ملخص

كثيرًا ما يستخدم السياسيون والناشطون والصحافيون وبعض الأكاديميين مصطلح «الطائفية»، لشرح أسباب الانتفاضة السورية والحرب الأهلية اللاحقة، وديناميكياتهما، إلا أن هذا الوضع يتناقض بصورة حادة مع أنواع الرموز والخطابات التي استخدمها المتظاهرون الذين يغلب عليهم الطابع السلمي، وقد نزلوا إلى الشوارع في سورية في 2011. بالاعتماد على المقاربة التفسيرية interpretivist والوصف الكثيف thick-description، تجد هذه الدراسة أنّ ردات أفعال الناشطين المحليين وغير المحليين، على عنف النظام وسرديته الرئيسة، تُوّجت بتنشيط مقولة «الطائفة»، وتسييسها بوصفها نزعة اجتماعية sociality متبقية. أجادل بأن الظهور المتزايد للأطر الطائفية وتعبئة الجهات الفاعلة غير الطائفية كانا جزءًا من استراتيجيات صنع الحدود التي اتبعتها الجهات الفاعلة المحلية وغير المحلية التي استفادت من عنف النظام والتأطير الطائفي الإقليمي، وسعت لاحتكار التمثيل الرمزي للانتفاضة. كانت فاعلية عملية التطييف رهنًا بتصعيد العنف، وعسكرة الانتفاضة وتدويلها، وعولمة transnationalisation الشبكات الطائفية. بتناول سورية بصفتها دراسة حالة، توضح هذه الدراسة الصراعات كيف تصبح "إثنية" أو "طائفية الترميز»، وكيف تؤثر الظاهرة الاجتماعية الكلية في السلوك على المستوى الجزئي ووجهات النظر واستراتيجيات صنع الحدود.

مقدمة

كثيرًا ما يستخدم السياسيون والناشطون والصحافيون وبعض الأكاديميين مصطلح "الطائفية" لشرح أسباب الانتفاضة السورية والحرب الأهلية اللاحقة، وديناميكياتهما، فتُعدّ الطائفية الآن عاملًا حاسمًا (أو حتى العامل الحاسم) في كثير من الروايات البارزة في ما حدث (Balanche, 2018). في مثل هذه التفسيرات، تميل العضوية الإثنية أو الطائفية إلى أن تُعامل كما لو كانت قوة ملحوظة تقود شكلًا معينًا من أشكال العنف المستوطن في الشرق الأوسط، وهو شكل من أشكال العنف يوجِه بدافع العداوات القديمة المفترضة بين الجماعات الدينية فوق الوطنية أو العابرة لها مثل «الشيعة» و«العلويين» و«السنّة".

من خلال التعامل مع الإثنية والارتباطات الطائفية على أنها قضايا صراعية تؤطر الصراع بمصطلحات المنتمي إلى الجماعة بين الجماعات المتشددة والمجسَدة؛ لا يصف الباحثون ببساطة العالم الاجتماعي والثقافي فحسب بل يشكلونه وكأنه يتكوّن من مجموعة من «الجماعات المتجانسة داخليًا والمحدودة خارجيًا، حتى الجهات الفاعلة الجماعية الأحادية [مثل العلويين مقابل السنة] ذات الأهداف المشتركة» (Brubaker, 2004, p. 8). يعكس هذا النوع من اللغة في البحث الذي يشتبك مع "الطائفية" في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قبولًا أو تبنيًا إشكاليًا لفئات الممارسة بصفتها فئات للتحليل[1]. ويشير بعض الباحثين (Hadaya, 2020; Khaddour, 2013; Phillips, 2015) إلى أن هذه الروايات لا يمكن أن تفسِّر التباين الجغرافي الواضح في التعبئة والعنف المعتمدين على الطائفية من دون الاعتراف بوجود عوامل أو خطوط صدع أخرى.

ليس ثمة شكّ في أنه مع تحول الانتفاضة السورية إلى حرب بالوكالة، أصبح استخدام الرموز والخطاب المتمحورين حول الطائفة سائدًا بين الجماعات المسلحة المهيمنة، الموالية للنظام أو للمعارضة له، والناشطين السوريين. إلا أن هذا الحال يتناقض بصورة حادة مع أنواع الرموز والخطاب التي استخدمها المتظاهرون الذين يغلب عليهم الطابع السلمي، ونزلوا إلى الشوارع في سورية في 15 آذار/مارس 2011 في خضم «الربيع العربي». فكيف تحولت الحركة الاجتماعية في سورية بصورة كبيرة وسريعة للغاية من احتجاجات سلمية تتمحور حول المطالب الشعبية بالإصلاحات السياسية، إلى حركة وطنية واسعة تدعو إلى «الثورة للسوريين جميعهم"، ثم إلى الحرب الأهلية الدموية المستمرة، مع زيادة وضوح الخطابات الطائفية والعسكرية؟ وكيف كوّنت السياسات الإقليمية السرديات المهيمنة حول الانتفاضة؟ وما الديناميات التي سهلّت التقاء السرديات والعنف الطائفي من أسفل إلى أعلى (المستوى المحلي والشعبي)، ومن أعلى إلى أسفل (المستوى فوق/ غير المحلي ومستوى النخبة)؟.

ثمة أدبيات عدة حول الطائفية والقومية في الشرق الأوسط تتجنب مزالق تفسيرات الطبائعيين primordialist، وتلتزم بالبنائية constructivism ومتغيرها الأداتي/ الذرائعي. حلّلت الأبحاث ((Dahi & Munif, 2012; Heydemann & Leenders, 2011; Mazur, 2019; Valbjørn & Hinnebusch, 2019; Wedeen, 2019; Wimmen, 2017) تمامًا كيفية

(1) - يعرّف بروباكار وكوبر Brubaker وCooper فئات الممارسة على أنها فئات من التجارب الاجتماعية اليومية، طورها واستخدمها الفاعلون الاجتماعيون العاديون، في حين أن فئات التحليل هي فئات الخبرة عن بعد يستخدمها العلماء وعلماء الاجتماع (2005، ص 62-63).

إثارة الأنظمة الاستبدادية، مثل نظام الأسد، العنفَ الطائفي، وتأطير المتظاهرين السلميين بوصفهم إرهابيين أو محرّضين على العنف الطائفي للمحافظة على حكمه القمعي. تكمّل هذه الدراسة هذه الأدبيات بتحليل استراتيجيات صنع الحدود بين الناشطين السوريين التي ما تزال غير مدروسة.

في هذه الدراسة أتجاوز السردية الخطية ذات القبول الواسع حول ثورة اختطفها الإسلاميون (Haddad, 2016) لتحليل استراتيجيات تكوين الجماعات والتطييف (Hashemi & Postel, 2017). وبذلك، أتتبع إعادة التعبير الاستطرادي للسرديات الطائفية بوصفها جزءًا من عمليات صنع المعنى في سياق الأعوام الثلاثة الأولى للانتفاضة السورية، وانتقال البلاد إلى حرب أهلية. وأجادل بأنه عند أي منعطف حرج (مثل الانتفاضات العربية) يُشكَّل التحالف بين الجهات الفاعلة المحلية وغير المحلية والصراع على التمثيل وشكل القوة الرمزية من خلال استراتيجيات صنع الحدود (مثل التطييف) والعنف ضد المنافسين على الأرض. بعد عسكرة الانتفاضة السورية التي بدأت محليًا بصورة متقطعة في صيف عام 2011، كثّفت ديناميات التدويل، وظهرت استراتيجيات جديدة للتصنيف وممارسات التعريف/ تحديد الهوية على الإنترنت وعلى الأرض. وإضافة إلى ذلك، أدت محاولات النظام الفاشلة احتواءّ النضال الشعبي واستخدامه المفرط العنفَ ضد المتظاهرين إلى تسريع هذا التحول الجذري الذي خلق فرصة للجهات الفاعلة غير المحلية (رواد الأعمال الطائفيين والجهات الفاعلة الإقليمية) لتطييف الصراع. صاغت هذه الجهات الفاعلة غير المحلية الحركة الاجتماعية بمصطلحات مرمَزة طائفيًا على القنوات الفضائية العربية، واستثمرت في الصراع عبر الدعم الانتقائي للجماعات الإسلامية المحلية ذات التوجه الطائفي الصريح دفاعًا عن مصالحها السياسية الخاصة.

من خلال تناول سورية، بوصفها دراسة حالة، تهدف هذه الدراسة إلى شرح الرواية الطائفية كيف أصبحت إطارًا مهيمنًا بعد الانتفاضة السورية، تسهم في بحوث السياسات الإثنية/الطائفية والحروب الأهلية والحركات الاجتماعية بثلاث طرق: أولًا، توضّح كيف تصبح الصراعات «إثنية» أو «مرمزة طائفيًا»، وكيف تؤثر الظواهر الاجتماعية الكلية في السلوك على المستوى الجزئي، وفي وجهات النظر واستراتيجيات صنع الحدود، وبصورة أكثر تحديدًا، تسلّط الدراسة الضوء على كيفية تنشيط الطائفة صراحة بوصفها نزعة اجتماعية متبقية تعيش ضمنيًا. ثانيًا، توضّح الصراعَ كيف يمكن أن يتشكّل على القوة الرمزية، عند أي منعطف حرج عندما يحدث تحول خارجي، من خلال ديناميات في داخل المجموعة والصراع على السلطة على الأرض. وثالثًا، تتجاوز هذه الدراسة دراسة حالة واحدة، بدعوة علماء السياسة إلى تحليل العمليات الاجتماعية للحرب الأهلية والعنف الطائفي من جديد (Wood, 2008).

سأناقش أولًا الطريقة المستخدمة في هذه الدراسة، وثانيًا، سأستعرض المؤلفات حول الصراعات العرقية و «الطائفية» في الشرق الأوسط التي كانت في الحالة السورية مقيّدة إثنوغرافيًا بسبب غياب وصول مباشر إلى المواقع الميدانية في داخل سورية في أعقاب الانتفاضة. وثالثًا، سأحلل السردية الرئيسة لنظام الأسد التي صاغت الانتفاضة بصفتها مؤامرة تهدف إلى إثارة الفتنة الطائفية. ورابعًا، سأحدد إطاري النظري لشرح ديناميكيات صنع الحدود الاجتماعية بين الناشطين السوريين خلال تطورهم الزمني ردًا على عنف النظام. ستناقش بقية الدراسة دراسة الحالة التجريبية، وتوضح كيف تكشفت ديناميات صنع الحدود تدريجيًا. بعد ذلك، سأحلل التقاء الديناميات من أسفل إلى أعلى (المستوى المحلي والشعبي)، ومن أعلى إلى أسفل (المستوى غير المحلي ومستوى

النخبة)، وكيف أثَّر ذلك في خطابات المعارضين مع التأكيد على فاعلية agency الجهات الفاعلة وتموضعها المعقد والدينامي. وأخيرًا، أختتم بالقول إن تطييف المجالات العامة الافتراضية بين عامي 2011 و2013 كان عملية متكررة نفذها ناشطون عبر الإنترنت والقنوات الفضائية العربية بتداول المظلوميات الجماعية تدريجيًا، وصاغوا الصراع بمصطلحات ذات ترميز طائفي. رافق هذا الإطار ديناميات طائفية على الأرض، تكثفت نتيجة لعنف النظام، وتدخل الجهات الفاعلة غير المحلية. أدى التقاء هذه الديناميات الظرفية والعملية والعلائقية processual في سياق الربيع العربي إلى خلق الظروف اللازمة للتعريف/ تحديد الهوية الطائفية المتشددة.

المنهجية والأسلوب/ المنهج

تستخدم هذه الدراسة المقاربة التفسيرية in-terpretivist والوصف الكثيف thick-description، لتتبع عمليات صنع المعنى والتطور التدريجي للتأطير الطائفي في سياق الانتفاضة السورية والحرب الأهلية اللاحقة. أستند أولًا إلى ملاحظات إثنوغرافية ولقاءات أسبوعية مع ناشطين في دمشق خلال الانتفاضة السورية حتى 31 تموز/ يوليو 2012، وثانيًا إلى سبع وعشرين مقابلة معمقة شبه منظمة عن نمط الحياة مع ناشطين سوريين شاركوا في الانتفاضة، ولكنهم كانوا يقيمون في فرجينيا وواشنطن العاصمة حيث أجريت المقابلات في آب/ أغسطس 2014، وثالثًا، إلى الخطاب وتحليل مضمون شعارات «أيام الجمعة»، التي تظاهر بموجبها ملايين السوريين. تغطي هذه الشعارات (146) أسبوعًا بين 18 آذار/ مارس 2011 و27 كانون الأول/ ديسمبر 2013، اختارتها صفحة فيسبوك «الثورة السورية ضد بشار الأسد 2011" (SRABA) 2011 لتظاهرات الجمعة الأسبوعية التي تبنتها بعض المنظمات الشعبية والجهات الفاعلة على الأرض. وإضافة إلى شعارات الاحتجاج، تشمل البيانات التي جمعناها مقاطع (فيديو) وصورًا نشرتها وسائل الإعلام الرئيسة (قناة الجزيرة) ووسائل التواصل الاجتماعي خلال الأعوام الثلاثة الأولى من الانتفاضة والصراع اللاحق. أضع هذه الشعارات في سياقها من خلال مناقشة السياسة المثيرة للجدل التي كانت تتكشف على الأرض (على المستوى الجزئي) وقت الاحتجاجات، ودور صفحة (فيسبوك) التي استخدمتها الجهات الفاعلة غير المحلية في الشتات التي استثمرت في المظلوميات المحلية للتعبير تدريجيًا عن سردية بخصوص الانقسام الرئيس (أي الصراع الطائفي).

اخترتُ هذه الصفحة من بين آلاف الصفحات المماثلة المؤيدة للانتفاضة في (فيسبوك)، وكثير منها علماني ووطني، لثلاثة أسباب: الأول، على الرغم من أنّ مديري (الثورة السورية ضد بشار الأسد 2011) كانوا فاعلين سوريين غير محليين مقيمين في المنفى، كانت دعوتهم إلى أول احتجاج منظم ضد نظام الأسد ناجحة[2]، واستجاب لها بعض الناشطين المحليين في دمشق في 15 آذار/ مارس 2011 (يوم انطلاق الانتفاضة). السبب الثاني أن (الثورة السورية ضد بشار الأسد 2011) احتكرت عملية اختيار شعارات احتجاجات الجمعة، وبخلاف الصفحات الأخرى، جرى تداول شعاراتها المقترحة على نطاق واسع على الأرض من خلال وسائل الإعلام الرئيسة (وبخاصة قناة الجزيرة بالعربية). وأخيرًا، جمعت الصفحة أكبر عدد من المتابعين بعد الانتفاضة في داخل سورية وخارجها، وعكست التقاء الديناميات من أسفل إلى أعلى (المستوى المحلي والشعبي)، ومن أعلى إلى أسفل (المستوى غير المحلي ومستوى النخبة) في المنعطف الحرج للربيع العربي، مع تأثير أكبر من الأخير في شعارات أيام الجمعة المتداولة في وسائل الإعلام الرئيسة.

يعبّر محتوى شعارات أيام الجمعة عن الاستراتيجيات الخطابية التي استخدمتها بعض الجهات الفاعلة (المحلية وغير المحلية) التي سعت لاحتكار التمثيل الرمزي للانتفاضة، والتحول من تشويش الحدود إلى صنع الحدود. تؤدي هذه المقاربة إلى إلغاء تحييد «الطائفية» عبر التعامل مع الديناميات المحلية وفوق المحلية للتطييف ووضعها في سياقها، والاعتراف أن موقع الفاعلية في الأحداث

(2) - في البداية، لم يكن لصفحة الثورة السورية ضد بشار الأسد 2011 صلة مباشرة بالناشطين المحليين المحتملين على الأرض الذين ألهمهم الربيع العربي. في الواقع، كانت أول محاولة للصفحة بالدعوة إلى «يوم الغضب» في 5 شباط/ فبراير 2011، لكنها فشلت في تحقيقه.

الديناميكية يتموضع في الوقت نفسه عند مستويات مختلفة من التراكم.

مراجعة الأدبيات

"الطائفية" و"الطائفة": توضيح مفاهيمي

على الرغم من الانتشار السريع للكتابات الأكاديمية وغير الأكاديمية بخصوص دور الطائفية في الشرق الأوسط؛ لا يوجد إجماع في الآراء بين الباحثين بخصوص تعريف الطائفية مفهوماً (Dixon, 2017, p. 16; Haddad, 2017, p. 381; Haddad, 2020, p. 124; Hashemi & Postel, 2017, pp. 4–5; Makdisi, 2017, p. 4; Pinto, 2017, p. 124). عمومًا، تُفهم الطائفية على نطاق واسع أنها "التعبئة السياسية للاختلافات الدينية كإطار لتوزيع الحقوق والامتيازات و/أو العنف بين بعض السكان" (Pinto, 2017, p. 124). هذا النوع من التعبئة، كما يوضح أسامة مقدسي (2017)، يعكس علاقة جدلية ومعقدة بين المحلّي والأجنبي عبر التاريخ المعاصر للشرق الأوسط. ينتقد باحثون، مثل ريموند هاينبوش (2016، 2020) وفنار حداد (2017، 2020)، استخدام مصطلح "الطائفية"، إذ يشير إلى ظاهرة متجانسة. في الواقع، يتغير التعريف الطائفي على طول سلسلة متصلة من الشدة توجد عليها تدرجات تراوح من القطب الذي يمثل شكلًا «مبتذلًا» أو يوميًا من الهوية الطائفية من خلال وسط «ذرائعي/ فعال» إلى الهويات الطائفية «المتشددة»، ونحن نتحرك نحو الطرف الآخر من الطيف (Hinnebusch, 2016).

المصطلح المعجمي ذو الصلة الذي يتطلب التوضيح هو «الطائفة sect"، ومكافئه باللغة العربية الطائفة ta'ifa. يشير المصطلح إلى أجزاء من كل أكبر، ما يعني بدوره الشقاق factional-ism والانحراف عن المسار الصحيح، والكفاح والصراع الداخليين (Haddad, 2017, p. 381; Majed, 2020, p. 21). يتعامل بعض الباحثين، مثل كيفن مازور (2019، p. 1023) مع "الطائفة" بوصفها نوعًا فرعيًا من الهوية «الإثنية» التي تُعرَف -بحسب ماكس فيبر- بأنها «شعور ذاتي بالانتماء إلى مجموعة تتميز بثقافة مشتركة وأصل مشترك». وتجادل ريما ماجد (2020) بأن التعامل مع الطوائف بوصفها وحدات تحليل يمثل مشكلة، لأنه يطمس العمليات الدينامية لتشكيل المجموعة، وينسب الهويات الطائفية/ الإثنية إلى الأشخاص الذين قد يعرّفون أنفسهم بمصطلحات أخرى.

تقترح ليزا ويدين (2019، p. 151) طريقة تفكير بديلة ومفيدة عبر استدعاء مفهوم ريموند ويليامز (1977، pp. 128–135) لـ "بُنى الشعور». وبتعاملنا مع الطائفة بوصفها "نزعة اجتماعية متبقية قابلة للتفعيل»، سنفهم كيف يمكن أن تعيش "الطائفة" بوصفها ظاهرة «تشكلت في الماضي» بصورة ضمنية، وتستمر بكونها «عنصرًا فعالًا في الحاضر» حتى قبل أن تُتبنى صراحة. يُتبنّى هذا النمط من التصوّر في الدراسة بصفته جزءًا من مقاربتي التفسيرية لفهم ديناميكيات صنع الحدود وعملية تطييف الانتفاضة السورية التي يجري من خلالها إنتاج فئات مثل الطوائف أو الإثنيات وإعادة تخيّلها.

التعبئة الطائفية ودور الفاعلين المحليين وغير المحليين في الحروب الأهلية

ثمة اهتمام علمي متزايد بتحليل أسباب العنف الطائفي في سياق الحرب الأهلية السورية، والظروف التي يصبح فيها التعريف/ تحديد الهوية الطائفية المبتذلة سمة بارزة سياسيًا. في هذه الدراسة، أعني «بالتعريف/ تحديد الهوية الطائفي»، استئناف

الهوية وتأثيره في طائفة المرء، وهو ما يعني في حالة سورية تحديد الهوية السياسية بخصوص العلويين والسنّة والشيعة. أستخدم التعريف/ تحديد الهوية identification أكثر من الهوية identity إلى حدّ ما، لأن التعريف هو مصطلح علائقي وإجرائي وفعال «يفتقر إلى الدلالات التجسيدية للهوية»، و«يدعونا إلى تحديد الوكلاء الذين يعرفون/ يحددون الهوية» (Brubaker & Cooper, 2000, p. 14).

استكشفت مؤلفات رزينة التحولات البنيوية والمؤسسية السابقة للانتفاضة (2011)، من ضمن ذلك أثر نمط الحكم غير المتكافئ وتنفيذ سياسات محددة عززت التعريفات الطائفية (Barout, 2012; Hinnebusch, 2020; Pinto, 2017)؛ والشبكات التي تبنيها الدول عبر الحدود الإثنية والطائفية التي تسببت لاحقًا في تباين المشاركة الثورية بين أفراد مجموعة إثنية مستبعَدة (Mazur, 2019)؛ ودور الأنظمة الاستبدادية في التلاعب المتعمد بتحديد الهوية الإثنية والطائفية، واستخدامها استراتيجية لصرف المطالب بالتغيير السياسي وإدامة سلطتها (Dahi & Munif, 2012; Dukhan, 2021; Hey-demann & Leenders, 2011; Matthiesen, 2013; Wimmen, 2017)؛ أو الدور الذي تلعبه الشائعات في إزاحة القلق عن آخر خيالي، وتجميع المشاعر الطائفية التي تعيش بغموض في أنماط متشددة من تحديد هوية المجموعة والتواطؤ والعمل الجماعي (Wedeen, 2019).

في حين تولي بعض هذه الأساليب اهتمامًا للعلاقة بين الفعالية/ الإرادة والبنية، فإن تفسير «السياسيين الأشرار/ الدكتاتور» (Dixon, 2017, pp. 14–15)، الذي يسود في كتابات المثقفين والناشطين السوريين (Al-Haj Saleh, 2017, pp. 226–229) ، غالبًا ما يبالغ في تأكيد فاعلية/ إرادة النخب القوية، من مثل نظام الأسد وحلفائه. ويميل علماء السياسة في بحثهم عن آلية سببية ذات قابلية للتعميم إلى تبني روايات ذرائعية تتعامل مع الأفراد على أن السياسيين يتلاعبون بهم دائمًا، حيث تغفل أهمية الدور الحاسم للجهات الفاعلة المحلية، مثل «المحرّضين الذين تعدّ مشاركتهم ضرورية لتحويل العداء إلى عنف»، وعلاقاتهم المعقدة مع الحلفاء غير المحليين (Kalyvas, 2003, p. 482). ينتقد عالم السياسة ستاثيس كاليفاس (2003, 2006) الحدّ من تعقيد ديناميات العنف التي تتطور في الحرب الأهلية إلى الانقسام الرئيس في الصراع (على سبيل المثال، القائم على الأساس الإثني أو الطائفي أو على الأيديولوجيات السياسية)، ويحذر من أخطار فرض الانقسام الكلي على ديناميات العنف على المستوى المحلي التي يمكن أن تكون موجهة أو مدفوعة بدوافع متنافسة. ويمكن أن يكون العنف الذي قد يبدو إثنيًا أو طائفيًا على المستوى الكلي (كما هو الحال في سورية واليمن والعراق) مدفوعًا بأشكال أخرى من الانقسامات المتقاطعة على المستوى الجزئي (مثل الخلاف بين الأفراد المتنافسين، أو أمراء الحرب، أو الجرائم المنظمة أو الأحياء أو القرى أو الطبقات). ومع ذلك، فإن الجهات الفاعلة المحلية ليست مجرد ضحايا سلبيين جرى التلاعب بهم، وقد يتبنّون الانقسام الكلي، ويتلاعبون بالجهات الفاعلة غير المحلية لكسب الدعم، وينجون من عنف الدولة، كما سأناقش لاحقًا. في الواقع، فإما تسامح المثقفون العلمانيون الملتزمون والأفراد الملحدون في سورية والعراق ولبنان مع الانقسام الكلي أو انجذبوا إليه، وصاغوا الانتفاضة والصراع اللاحق بمصطلحات/ عبارات طائفية. ولذلك، فإن جَسر هذه الفجوة من خلال تأكيد روابط على المستويات الكلية-الجزئية، وتأثير التحالفات بين الجهات الفاعلة غير المحلية والمحلية، أمرٌ بالغ الأهمية للتخفيف من ديناميات الحرب الأهلية والمعاني القائمة الخاصة بسياق ممارسات الجهات الفاعلة في سياق معين.

في هذه الدراسة، أستكشف دور الأنظمة الاستبدادية والجهات الفاعلة غير المحلية (رواد

الأعمال الطائفيين والجهات الفاعلة الإقليمية) في إنتاج ظروف تطييف، وأستكشف أيضًا دور المحرضين المحليين؛ الأمر الذي يتطلب النظر إلى الجهات الفاعلة ديناميًا والفاعلية/ الإرادة بوصفها «مجموعة متغيرة من الاحتمالات/ الإمكانات» (Fujii, 2009, p. 18). وأكملُ تحليل باولو بينتو (2017, p. 123) الدقيق لتطييف الصراع السوري، بوصفه عملية تفاقمت نتيجة العسكرة والتدويل، و«تكشفت على مستويات عدة: من أعلى إلى أسفل (من صنع الدولة)؛ ومن القاعدة إلى القمة (المولَّدة اجتماعيًا)؛ والخارج (الذي تغذيه القوى الإقليمية)؛ ومن الداخل إلى الخارج (انتشار الصراع السوري في الدول المجاورة)». على وجه التحديد، أتتبع ردات أفعال الناشطين المحليين وغير المحليين على العنف الوحشي للنظام وروايته الرئيسة، كيف بلغت ذروتها في تنشيط وتسييس مقولة «الطائفة» بوصفها نزعة اجتماعية sociality متبقية. تألفت الجهات الفاعلة غير المحلية من مجموعة غير متجانسة من الجماعات والأفراد (رواد الأعمال الطائفيين، ومعظمهم من الشبكات الخاصة التي تتخذ من الخليج مقرًا لها من الممولين المحافظين دينيًا، ورجال الدين، والمتعاطفين مع الإخوان المسلمين، والجهات الفاعلة الإقليمية) الذين استثمروا في الانقسام الرئيس للصراع (أي الصراع الإثني/ الطائفي) والمظلوميات الاجتماعية. من أجل الاستفادة من الشبكات والسلطة المحلية، زودت هذه الجهات الفاعلة غير المحلية فاعلين محليين مختارين بوسائل عدة (مثل الأسلحة ومنصات الإعلام والمقاعد في المنظمات السياسية)، سمحت لهم بالحصول على ميزة محلية على المنافسين المحليين. في المقابل، تمكنت بعض الجهات الفاعلة غير المحلية، موقتًا على الأقل، من الاستفادة من الشبكات المحلية وتوليد التعبئة؛ ومع ذلك، فقد أيّدت في كثير من الحالات الجهات الفاعلة المحلية المتنافسة. كان هذا هو الحال خصوصًا مع حكومات قطر وتركيا والمملكة العربية السعودية، وكذلك كان شأن الأفراد الأثرياء ورجال الأعمال الطائفيين الذين دعموا الجهات الفاعلة المحلية المتنافسة في سورية. وكان لهذه «العملية اللامركزية والمترابطة في الوقت نفسه» (Kalyvas, 2003, p. 483) تأثيرٌ في تهميش الجماعات الثورية الأخرى والأفراد الذين يواصلون مقاومة تأطير الانتفاضة وفقًا للانقسام الكلي (أي الصراع الطائفي/الإثني)، وهو إطار روّج له كل من النظام وخصومه، كما سأناقش بمزيد من التفصيل في الأقسام اللاحقة.

الانتفاضة السورية في سياقها ورواية النظام الرئيسة

بعد اندلاع انتفاضات الربيع العربي المبكرة في تونس ومصر واليمن والبحرين وليبيا، نظمت مجموعات صغيرة من الناشطين الشباب احتجاجات واعتصامات صغيرة تضامنًا مع الحركات الاجتماعية في هذه البلدان. كان الاحتجاج الأول الذي تحدى صراحة النظام السوري في سوق الحميدية في دمشق، في 15 آذار/ مارس 2011 (Ba-rout, 2012; Zeno, 2017). ومع ذلك، اكتسبت الانتفاضة السورية زخمًا في 18 آذار/ مارس 2011 في درعا، عندما قتلت قوات الأمن المتظاهرين المطالبين بالإفراج عن (15) تلميذًا، كانوا قد اعتقلوا وتعرّضوا للتعذيب لتقليدهم الشعارات الثورية التونسية والمصرية وكتابتها على جدار مدرستهم (Barout, 2012, pp. 183–184). أثارت هذه الأنباء الواردة من درعا مزيدًا من الغضب والتضامن في سلمية وحمص ودوما وبانياس وداريا ودير والزور، وما بدأ بعددٍ من الأحداث المتباينة اندمج في حركات اجتماعية واسعة ومنظمة.

استدعاء الطوائف

كان المتظاهرون على دراية بإمكان استخدام النظام خطابه الرسمي وذخيرته «المناهضة للإمبريالية» ضد تحركاتهم، لأن كل سوري كان «يجيد اللغة الرمزية للنظام» (Wedeen, 1999, p. 65). وهكذا، في 10 آذار/ مارس 2011، أي قبل أيام قليلة من احتجاج 15 آذار/ مارس، وقّع كثيرٌ من المثقفين والناشطين السوريين المحتملين على "مدونة أخلاقيات/ وثيقة شرف ضد الطائفية في سورية"، جرى تداولها على نطاق واسع على منصة (فيسبوك)[3]. يجسد هذا الانتباهَ والاهتمام قبل الانتفاضة بشبح التطييف وإمكان تنشيط الطائفية واستخدامها سياسيًا تنظيرُ "ليزا ويدين" للطائفية على أنها «نزعة اجتماعية متبقية»، حيث يمكنها «العيش/ الوجود ضمنيًا قبل تبنّيها صراحة»، وتجميعها في تجربة وفكر نشطين (2019, p. 151). سمح استمرار الطائفة، بوصفها مفهومًا حيًا ديناميًا والشكل المتبقي من النزعة الاجتماعية sociality ذات الخبرة الغامضة للنظام، بأمننة securitise الانتفاضة بسرعة وتأطيرها بمصطلحات محاربة «العصابات المسلحة» (التي تُفهم بوصفها «جماعات إرهابية» أفرادها "تكفيريون أصوليون»)، ولإثارة شعور بالتهديد لمزاعم السيادة الوطنية والتعددية الثقافية، وهو ما يبرر القمع والعمليات العسكرية ضد المناطق المتمردة.

في الواقع، بعد الأسبوع الأول من الانتفاضة، قالت بثينة شعبان، كبيرة المستشارين السياسيين لبشار الأسد، لمحطة (بي بي سي العربية) في 26 آذار/ مارس 2011: إن هناك «خطة لإثارة الصراع الطائفي داخل سورية»[4]. واتهمت شعبان جماعة الإخوان المسلمين بالوقوف وراء هذه الخطة، لاستهداف موقف سورية المناهض للإمبريالية. ربما كانت تشير ضمنًا إلى حدثين وقعا في اليوم السابق (25 آذار/ مارس)؛ الأول كان تعليق الشيخ يوسف القرضاوي الاستفزازي على قناة الجزيرة، حيث أعلن رجل الدين ذو النفوذ المرتبط بجماعة الإخوان المسلمين المقيم في قطر ورئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، في

(3) - «المدونة» كتبها ياسين الحاج صالح، الكاتب والمعارض السياسي السوري، وكان كاتب هذه الدراسة من بين الذين وقعوا عليها.

(4) - مستشارة بشار الأسد في مقابلة مع هيئة الإذاعة البريطانية، الجزء الأول، «فيديو، 26:00، يوتيوب، 26 آذار/ مارس 2011. (https://tinyurl.com/sy7wm3y)

برنامجه الأسبوعي، أن «بشار الأسد يعامل الشعب كما لو كان هو سنّيًا... لكن مشكلته أنه أسير حاشيته وطائفته الدينية»، ما يعني ضمنًا أن قرارات الأسد القمعية تستند إلى تعريف/ تحديد هوية طائفي (Satik, 2013, p. 396; Daher, 2019, p. 119)؛ والحدث الثاني هو التوتر الطائفي بين السكان السنّة والعلويين في اللاذقية، بعد تداول شائعات كاذبة عن هجوم طائفي موشك كان من الممكن أن تنفذه «الطائفة الأخرى» (Bishara, 2013, pp. 321–322; Shahhoud, 2017, pp. 40–41).

في مقابلة مع محطة بي بي سي، صرحت شعبان أنه "... هكذا بدأت جماعة الإخوان المسلمين [الصراع الطائفي] عام 1979 في اللاذقية. قتلوا شيخًا سنّيًا... وأنا آسفة لاستخدام هذا اللفظ [أي الإشارة صراحة إلى الطوائف]، نحن لا نستخدم هذا اللفظ في سورية... وقتلوا شيخًا علويًا، وحرضوا على الفتنة [الطائفية] وسط السنة. نحن في سورية.. التعايش والاختلاط هو هويتنا وسنهزم هذه الأزمة"[5].

تجاوزت كلمات شعبان خطًا من المحرمات حتى الآن للمسؤولين السوريين. ونظرًا إلى أن النظام ملتزم رسميًا بأيديولوجية العروبة العلمانية، ويحكم باسم حزب البعث، فالمسؤولون السوريون، مثل شعبان، «لا يستخدمون هذا اللفظ». كان القانون السوري في الماضي يعاقب ذكر الطوائف صراحة في الخطاب العام ويقمعه، وبخاصة في الخطاب السياسي، خصوصًا بعد المواجهة الدموية مع الإخوان المسلمين في الثمانينيات. وهكذا، من خلال «تسمية» الطوائف صراحةً في تحذيرها من التهديد المحتمل لـ «الطائفية»، كان لتعليقات شعبان طابع أدائي per-formative بالمعنى البورديوي (Bourdieu, 1991)، حيث استحضرت عالمًا هوبزيًا Hobbesian تكون فيه سورية في ظل نظام الأسد فوق «الطوائف» التي تسيطر عليها الدولة وتحتويها، ومن دونها سيستعر العنف الطائفي حتمًا. وبكلمات أخرى: إن استحضار «الطائفة» يمثّل ما هو مسمى.

بعد أربعة أيام، ألقى بشار الأسد خطابه الأول في مجلس الشعب السوري (30 آذار/ مارس 2011). وعدّ الأسد في خطابه محطات الإنترنت والقنوات الفضائية أدوات تآمرية في «الحرب الافتراضية» التي استهدفت سورية قبل أسابيع من الانتفاضة. كانت هذه الأدوات، بحسب الأسد، مساعدة في إنتاج قصص ملفقة لتحريض السوريين، وأضاف أن «المتآمرين» بدؤوا في وقت لاحق إرسال رسائل نصية بمحتوى طائفي لنشر الخوف وانعدام الثقة بين الطوائف المختلفة. وأوضح الأسد الخطة التآمرية بالقول إنه من أجل جعل قصصهم تبدو ذات مصداقية، «أرسلوا ملثمين إلى أحياء تعيش فيها طوائف مختلفة، وطرقوا أبواب الناس، وأخبروا بعضهم أن الطائفة الأخرى قد هاجمت بالفعل، وهي الآن في الشوارع، من أجل الحصول على ردة فعل» (Al-Asad 2011).

بعد هذا الخطاب مباشرة، ظهرت لوحات إعلانية وملصقات تحذّر الناس من «الفتنة الطائفية»، وأخرى في دمشق تُظهر صورة الأسد، والعلم الرسمي، وشعارًا غير مسبوق في التاريخ المعاصر لسورية: (طائفتي سوري). وبالمثل، تبنى السوريون المؤيدون للنظام هذه الصور صوراً لملفهم الشخصي على منصة (فيسبوك) الشكل 1 (Figure 1)، وردَّ المتظاهرون في مناطق مثل الزبداني، بالقرب من دمشق، على حملة النظام واتهاماته بحمل لافتة في تظاهرة في نيسان/ أبريل 2011، جاء فيها «لا سلفي ولا إخوان... طائفتي هي الحرية» (Daher, 2019, p. 48; Pinto, 2017, p. 128). من الآن فصاعدًا، ستفَعّل «الطائفة» بوصفها نزعة اجتماعية متبقية كانت تعيش/ موجودة ضمنيًا، وستصبح تدريجيًا مشحونة سياسيًا.

(5) - المصدر السابق، 7:05 -7:30

الشكل (1)

صورتان تحملان شعار «طائفتي سوري» ظهرتا بعد يوم من خطاب الأسد الأول (المصدر: المحفوظات الشخصية للمؤلف). ويمكن الاطلاع على الشكل الملون على الموقع wileyonlinelibrary.com

وإضافة إلى ذلك، لاحظت رهف الدغلي (2020, p. 10) منذ عام 2011 أن نظام الأسد اتبع استراتيجية خطابية "تخلط وترادف عن عمد كونك وطنيًا مع كونك مؤمنًا دينيًا"، من خلال تبعيث Ba'ath-ification الإسلام». وفضلًا عن ذلك، فإن الوكالة العربية السورية الرسمية للأنباء (سانا)، وقناة الدنيا Addounia، وهي محطة تلفزيونية خاصة شبه رسمية، ضخمتا واختلقتا قصصًا عن دور المقاتلين الأجانب «غير السوريين» في الانتفاضة، وبدأتا الاستهزاء بالمتظاهرين، بوصفهم «سلفيين»، و«عملاء لجماعة الإخوان المسلمين»، و «إرهابيين»، و «مندسّين» و«عرعوريين"، إشارة إلى أتباع الشيخ عدنان العرعور أحد أكثر رجال الدين السلفيين السوريين نفوذًا في المملكة العربية السعودية. في الوقت نفسه، منحت القنوات الفضائية العربية العرعور منصّة لتعزيز شعبيته بعد الانتفاضة، على الرغم من حقيقة أن تأثيره كان محدودًا للغاية على الأرض خلال تلك الفترة. على سبيل المثال، في 5 آب/ أغسطس 2011، وصفت قناة العربية العرعور بأنه «رمز للثورات»، وقدّمته قناة الجزيرة في 31 آب/ أغسطس 2011 على أنه «أكبر محرّض غير عنيف ضدّ النظام السوري» (Al-Qassemi, 2012).

والأهم من ذلك أن النظام أصدر ثلاث قرارات عفو عام: (26 آذار/ مارس، 31 أيار/ مايو، 20 حزيران/ يونيو 2011)، لم تكتف بإطلاق سراح المحتجين، بل أفرجت أيضًا عن عدد كبير من الإسلاميين والجهاديين المخضرمين من سجن صيدنايا (Bishara, 2013, p. 268; Both, 2021, pp. 5-3)، وانضم كثيرٌ من هؤلاء السجناء السابقين إلى الانتفاضة، وشكلوا كتائب عسكرية، بالإضافة إلى المجرمين الذين جُنِّد بعضهم لاحقًا في الميليشيات الموالية. ومن المفارقات أن النظام اعتمد بازدياد على أنصاره الطائفيين المعروفينبصورة غير رسمية

باسم الشبيحة (تعني حرفيًا «الأشباح») لحماية «النظام الوطني السيادي»، وادعاءات «الترتيبات متعددة الثقافات» (Wedeen, 2019, p. 142; Ha-daya, 2020).

أنتجت آلة دعاية النظام مجموعة متنوعة من نظريات المؤامرة حول تحالف مزعوم بين الخليج وقطر والمملكة العربية السعودية على وجه الخصوص، والجماعات الجهادية وإسرائيل والولايات المتحدة لمعاقبة سورية، وليس النظام، لموقفه المناهض للإمبريالية الذي قاوم المخطط الأميركي الرئيس لإنشاء شرق أوسط جديد، الذي بدأته إدارة بوش في العراق. في الأماكن العامة، وفي العمل، وحتى في بعض المنازل الخاصة، تجنب المواطنون السوريون العاديون مشاهدة الأخبار على قناة الجزيرة أو العربية في حضور غرباء، خوفًا من إبلاغ قوات الأمن؛ وبذلك أصبحت الرواية الرسمية هي التأطير العلني الوحيد الذي شكل التجربة اللاحقة لكثير من السوريين خلال تلك المدة، وقد فهم من خلالها مؤيدو النظام صورة الانتفاضة السورية.

بالنظر إلى السلبية التاريخية المرتبطة بفئتي «الطائفية» و«الطائفي» من خلال « ترميز حركة أو حدث باسم طائفة معينة»، فإن الحدث أو المجموعة المصنّفة أو الموصوفة سوف تستدعي دلالات سلبية (Haddad, 2017, p. 373). وهكذا سعى النظام من خلال استدعاء التأطير الطائفي إلى حشد مؤيديه ضد التهديد المحتمل من «الآخرين»، وإلى تشويه سمعة الحركات الاحتجاجية المتزايدة، وكذلك إلى إبعاد المتظاهرين غير الطائفيين والمنضمين المحتملين، لا سيما أعضاء مجموعات الأقليات والسوريين العلمانيين. بهذا المعنى، اتّبع الخطاب الرسمي للنظام السوري الذي صاحبه استخدامات استراتيجية للعنف الطائفي، وتوزيع غير متكافئ للعنف بين الطوائف الدينية، واستراتيجية لترسيم الحدود على أساس تحديد/ تعريف ثنائي بين «السوري/ الوطني» و «دون الوطني/ الطائفة». ومن ثم، فإن فظائع النظام وعنفه ضد المتظاهرين السلميين هيأا الظروف اللازمة لرواد الأعمال الطائفيين، الذين سيتدخلون في المجالين السياسي والثقافي في أثناء عملية العسكرة.

ديناميات صنع الحدود الاجتماعية بين الناشطين السوريين

في هذا القسم، أعرض تحليلي للديناميات المتغيرة لصنع الحدود الاجتماعية بين الناشطين السوريين في سياق الانتفاضة السورية والحرب الأهلية اللاحقة وفقًا لترتيب زمني (الشكل 2، Figure 2). أرسم التسلسل الزمني استنادًا إلى ملاحظاتي الإثنوغرافية المباشرة، وتوثيق عمليات الكشف عن التطييف والعسكرة، ومن أجريتُ معهم المقابلات بوصفهم «المحركين الأوائل»، وحسابات مستفيضة موثقة باللغة العربية (Barout, 2012, Bisha-ra, 2013, Satik, 2013). وبناءً على مساهمات الباحثين في السياسة البنائية الاجتماعية والإثنية (Brubaker, 2004; Chandra, 2012; Fujii, 2009; Wimmer, 2013)، سأحلل استراتيجيات صنع الحدود، ودور الجهات الفاعلة المحلية وغير المحلية في بناء "السردية الطائفية" في سياق الانتفاضة السورية.

شكلت الموجات المبكرة من الانتفاضات العربية التي اجتاحت منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بين عامي 2010 و2011 تحولًا خارجيًا exogenous كبيرًا، أدى إلى زعزعة استقرار النظام المؤسسي في البلدان المتأثرة، ووفرت حوافز لمختلف الجهات الفاعلة (الإصلاحيين، والثوار، والانتهازيين، وأنصار النظام، والجهات الفاعلة الإقليمية والدولية) لمتابعة استراتيجيات جديدة لتكوين المجموعات. نظرًا إلى البنية غير المتكافئة لعلاقات القوة والتحالفات

السياسية، كان بعض الفاعلين (أفراد أو جهات فاعلة تعاضدية، مثل جماعة الإخوان المسلمين والمجلس الوطني السوري) أكثر نجاحًا في البداية في حشد الدعم من الرعاة الإقليميين، أكثر من غيرهم (مثل هيئة التنسيق الوطنية)، الذين اشتركوا معهم في الهدف (تغيير النظام)، لكنهم اختلفوا في وسائل تحقيق هذا الهدف. أنتجت الطبيعة المجزأة واللامركزية والمحلية للاحتجاجات تغييرات داخلية، إذ اختار الفاعلون استراتيجيات مختلفة لرسم الحدود بمرور الوقت لتحقيق أهدافهم، تحولت بدورها إلى تحولات جذرية في بنية الحدود الطائفية والإثنية، وتسببت في تجميد أشكال التضامن الطائفية والإثنية، لكن شدة هذه العمليات وتجميد الاختلافات الطائفية والإثنية اختلفا إقليميًا، وتراوحا بين العنف الإثني والمرمَز طائفيًا (من ضمن ذلك القتل والاختطاف والعنف الجنسي) وخطاب الكراهية واغتيال الشخصيات والشائعات أو الجهد المبذول لمواجهة الروايات والعنف الطائفية (مثل المبادرات المحلية للمصالحة).

في ما يتعلق بالتحقيب، يمكننا تحديد المراحل الآتية بصورة فضفاضة.

بين شباط/ فبراير وآذار/ مارس 2011 طالب المتظاهرون السوريون في الغالب بـ «إصلاح النظام» أكثر من إطاحته، وكانت المظالم المحلية هي ما يُحرّكهم. بين نيسان/ أبريل وأيار/ مايو 2011 رد الناشطون على الإنترنت وعلى الأرض على عنف النظام بالمطالبة برحيل بشار الأسد. كان الخطاب مستوحىً من شعارات انتفاضات «الربيع العربي»، لكن في هذه المرحلة، استخدم الناشطون استراتيجية طمس الحدود، والتقليل من أهمية التعريف/ تحديد الهوية الطائفي والإثني المبتذل، بوصفه مبدأ للتصنيف الخطابي والتنظيم الاجتماعي، وشددوا بدلًا من ذلك على التشاركية الشمولية والعالمية والقيم الديمقراطية والوحدة الوطنية (Wimmer, 2013, p. 61). مع عسكرة الانتفاضة

السورية التي بدأت محليًا بتشكيل حركة الضباط الأحرار في 9 حزيران/ يونيو 2011، ولاحقًا الجيش السوري الحر (29 تموز/ يوليو 2011)، اشتدت في صيف عام 2012 ديناميات التدويل والتطييف (Abboud, 2016, p. 184; Pinto, 2017, pp. 137–139)، وظهرت ممارسات تصنيف وتعريف جديدة من دون استبدال استراتيجية طمس الحدود. منح الفاعلون السوريون الذين أنشؤوا شبكات مع جهات إقليمية قوية وصولًا مميزًا إلى القنوات الفضائية العربية (مثل قناتي الجزيرة والعربية) وأتقنوا استخدام الوسائط الجديدة (بصورة أساس فيسبوك ويوتيوب) في مناخ مبتهج بـ«الربيع العربي». هذا الوصول المميز إلى وسائل الإعلام العربية التي تسيطر عليها دول الخليج مكّن هؤلاء الفاعلين اتباعَ استراتيجيات خطابية للمزايدة الثورية والدينية التي روّجت وأشاعت ما أصبح بحلول أيلول/ سبتمبر 2011 رواية سائدة حول حتمية العسكرة والحلّ غير الدبلوماسي في سورية، وزاد تدريجيًا بروز الحدود الطائفية (لا سيما في مناطق مثل حمص وإدلب في وقت مبكر من حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو 2011).

استغلت الجماعات الإسلامية والجهادية المسلحة ذات الخطاب الطائفي الصريح (بعضها كان فعالًا بالفعل عام 2011) الوضع، لأن احتمالات التدخل العسكري الغربي على النمط الليبي بدت بعيدة بحلول شباط/ فبراير 2012، ولأن الجيش السوري الحر فشل في التبلور في كيان مركزي ومتماسك، وانتشرت بين صفوف المعارضة المسلحة في سورية خلال الأشهر الثمانية الأولى من عام 2012 (ICG, 2012, p. 2; Daher, 2019, p. 127). خلق هذا التحول الجذري، المصحوب باستخدام النظام المفرط للعنف والتلاعب بالتوترات الطائفية فرصة للجهات الفاعلة غير المحلية (رواد الأعمال الطائفيين، الشبكات الخاصة المتمركزة في الخليج من الممولين المحافظين دينيًا والجهات الفاعلة الإقليمية) لزيادة طائفية الصراع. كان حجم التدخل والتمويل والعسكرة وعولمة الخطاب الطائفي في السياق السوري غير مسبوق، ويرجع ذلك أساسًا إلى أن الانتفاضة السورية اندلعت عندما كانت ممالك الخليج في منعطف حرج. كان المستبدون الخليجيون يحتقرون سياسات الشارع في بلدانهم، ومن أجل التغلب على موجة "الربيع العربي"، كانت ردة فعلهم استغلال الهوية الطائفية المبتذلة، و«خلق خليج طائفي حرفيًا» (ICG, 2012, p. 30; Matthiesen, 2013, p. XIV). من خلال تأطير الصراع بمصطلحات ذات ترميز طائفي على القنوات الفضائية العربية، ومن خلال دعمهم الانتقائي للجماعات الإسلامية/ السلفية والناشطين ذوي التوجه الطائفي لمصالحهم السياسية الخاصة، أعاد الفاعلون غير المحليين بناء سردية رئيسة كبيرة تصوّر الصراع السوري بصفته جزءًا من ثنائية قطبية طائفية إقليمية أكبر يغذيها التدخلان الإيراني والسعودي.

أثبتت الجماعات السلفية المحلية المسلحة أنها أكثر فاعلية، من حيث طريقة الحكم ومحاربة قوات النظام، من الجماعات الوطنية التابعة للجيش السوري الحر. لذلك، حوّل كثير من الناشطين (من ضمنهم الليبراليون واليساريون والعلمانيون) استراتيجيتهم من إنكار وجود أي جماعة إسلامية مسلحة، حيث كانوا قلقين من أن يستفيد النظام من ذلك، إلى الدفاع عن هذه الجماعات أو التطبيع معها (من ضمن ذلك جبهة النصرة، فرع القاعدة في سورية) بوصفها جزءًا من الحركة الثورية. وأخيرًا، بين كانون الثاني/ يناير وحزيران/ يونيو 2013، تكثفت عملية التحول إلى الهوية الطائفية المتشددة في صيغة جهادية عالمية، بخاصة بعد التدخل العسكري المباشر والعام لحزب الله وإيران، وعكست الشعارات بصورة متزايدة التقاء من القاعدة إلى القمة (المستوى المحلي والشعبي)، ومن أعلى إلى أسفل (المستوى غير المحلي ومستوى النخبة).

ومثل ما سأناقش في القسم الآتي، فقد أصبح الصراع على التمثيل والقوة الرمزية، ومحاولة فرض رؤية عسكرية، ذا أهمية لاحقًا، لأنه زاد من تجزئة المعارضة غير المتماسكة بالفعل، وأنتج حدودًا جديدة (المؤيدة للعسكرة مقابل المؤيدة للدبلوماسية، والخطاب الوطني مقابل الخطاب دون الوطني والعابر للوطنية، المعارضة الداخلية مقابل المعارضة الخارجية) تعززت من خلال العنف، وأدرِجت في الواقع الاجتماعي.

التطييف الافتراضي للمجالات العامة

كانت الحركات الاجتماعية في «الربيع العربي» أمثلة ثورية على الأساليب التي استخدم بها الناشطون وسائل التواصل الاجتماعي لتحدي احتكار الأنظمة الاستبدادية للروايات الرسمية (Alhayek, 2016; Howard & Hussain, 2013). منذ ذلك الحين، أصبحت سورية "أكثر الصراعات الأهلية توسطًا/ غير مباشرة اجتماعيًا في التاريخ" (Lynch et al., 2014a, p. 5). إلى جانب رواية النظام وردّه العنيف على الانتفاضة، كان لنشر اللغة الطائفية من خلال الصفحات المؤيدة للمعارضة المتابعة على نطاق واسع التي صوّرت الصراع حربًا طائفية يشنّها العلويون والشيعة ضد الأغلبية السنية الضحية؛ تأثير بتسريع عسكرة الانتفاضة. توّج هذا التأطير الجماعاتي للصراع في وقت لاحق بتطبيع المنظمات الجهادية في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة، وظهور شكل طائفي متطرف ومتشدد من تحديد الهوية (Hinnebusch, 2016, p. 123).

في هذا القسم، ألخص كيف استخدم الناشطون عبر الإنترنت ورجال الأعمال الطائفيون وسائل التواصل الاجتماعي استراتيجية لتكوين المجموعات، وساهموا في عمليات عسكرة وتطييف الانتفاضة السورية. على وجه التحديد، أحلّل دور صفحة فيسبوك «الثورة السورية ضد بشار الأسد 2011" (لاحقًا: الصفحة) التي أدارها فاعلون غير محليين استغلوا الرموز والخطابات المتمحورة حول الطائفة، لبناء معنى بالتجمع حول السنّة.

صفحة الفيسبوك «الثورة السورية ضد بشار الأسد 2011»

في أعقاب الاحتجاج الأول في سوق الحميدية في دمشق في 15 آذار/ مارس 2011، حمّلت صفحة الثورة السورية ضد بشار الأسد 2011 (التي تأسست في 18 كانون الثاني/ يناير 2011) مقطع (فيديو) خاصًا بهذا الاحتجاج على موقع (يوتيوب)، وبُثَّ لاحقًا على وسائل الإعلام الدولية الرئيسة. وتزعم الصفحة المذكورة أن تظاهرات 15 آذار/ مارس 2011 وما تلاها حدثت استجابة لدعوتها، وأن «عددًا من ناشطي هذه الصفحة شارك في تلك التظاهرة، واعتقل عدد من الشباب في ذلك اليوم، لكنها كانت شرارة بداية الثورة السورية». ومع ذلك، فإن هذا الادعاء يبالغ في الدور الذي لعبته الصفحة هذه، ويشوه الاحتجاجات المبكرة كما لو كانت بقيادة النخبة، ونظمتها جهات فاعلة غير محلية.

شارك اثنان من الذين قابلتهم في التظاهرة الأولى في دمشق، ومع ذلك، رفض كلاهما مزاعم الصفحة. تقول سلمى: "لم أتابع الصفحة مطلقًا أو أحبها، سمعت أن هناك صراعًا حول عملية تسمية أيام الجمعة، لكن بصراحة، لم أهتم. لماذا الأمر مهمّ جدًا؟ حسنًا، أفهم أنه [بتسمية يوم الجمعة] يمكنك إرسال رسالة محددة. لكن الناس لم يحتجوا بسبب ذلك![6]"

وعلى غرار سلمى ينتقد سليمان الفكرة الكاملة للاحتجاج بقيادة النخبة في 15 آذار/ مارس 2011، إذ يقول: «كنت أتظاهر بانتظام، وأنظم تظاهرات في

(6) - مقابلة مع سلمى من دمشق؛ واشنطن العاصمة، الولايات المتحدة الأميركية، 16 آب/ أغسطس 2014.

دمشق ... أنا -مع آخرين بالطبع- نظمت الاحتجاج الشهير في الميدان [حي تاريخي في دمشق] الذي شارك فيه ما بين (6,000-5,000) متظاهر. لكني لا أتذكر حتى اسم هذه الجمعة! في رأيي، اقتصر الخلاف حول شعارات الجمعة على منصة (فيسبوك). يجب أن تعلم أن المنظمين جميعهم كانوا يعملون خارج سورية. في ذلك الوقت، لا أحد -أعني الناشطين- داخل سورية كان لديه الوقت ليكون مديرًا متفرغًا. وإضافة إلى ذلك، فإن هؤلاء الإداريين/ المنظمين كانوا يعملون خارج البلاد، لأسباب أمنية واضحة»[7].

غسّان، وهو ناشط سوري - فلسطيني من مخيم اليرموك، وعضو في لجان التنسيق المحلية عن مخيم اليرموك عام 2011، يقول: «... دعت الصفحة للتظاهر، لأنه لم يجرؤ أحد على نشر مثل هذه الدعوة على (فيسبوك) وهو داخل البلاد. لكني أؤكد لكم أنهم لم ينظّموا التظاهرة»[8].

إن حقيقة أن تظاهرة 15 آذار/ مارس قد حدثت بعد مكالمة نشرتها الصفحة، وأن بعض الأشخاص الذين قابلتهم شاركوا في هذه التظاهرة من دون معرفة النشاط عبر الإنترنت على (فيسبوك)؛ مثال مبكر على «تقارب الدوافع المحلية والضرورات غير المحلية» من دون أن يتطلب ذلك بالضرورة آليات عرضية مباشرة (Kalyvas, 2006, p. 387). على سبيل المثال، شارك صديق لي من طرطوس في تظاهرة سوق الحميدية، بعد لقائه مع صديق موثوق به سافر من حمص بعد رؤية منشور الصفحة. بكلمات أخرى: يجب أن ننظر إلى دور الفاعلين غير المحليين والمحليين ديناميكيًا، وأن نتعامل مع الفاعلية على أنها تقع على مستويات مختلفة من التراكم (Fu-jii, 2009, p. 18).

ومع ذلك، في أعقاب تظاهرات 18 آذار/ مارس في درعا، سرعان ما أصبح موقع الصفحة واحدًا من أكثر المواقع الألكترونية المناهضة للنظام قراءةً على نطاق واسع، إذ انطلقت حقًا عندما تم التحقق من صدق موقفها بوصفها مصدرًا لاختيار شعارات تظاهرات الجمعة، الأمر الذي أكدته القنوات الفضائية العربية، وتحديدًا (الجزيرة). كان هذا جزءًا من سلسلة طويلة من اختيارات النخبة المعارضة ممثلة بخيار «الشعب السوري». بعد ذلك، جمعت الصفحة عددًا كبيرًا من المتابعين، أكثر من (42,000) شخص بحلول منتصف آذار/ مارس 2011، وقفز العدد إلى أكثر من (138,000) بحلول نيسان/ أبريل 2011 ((Al-Mustafa, 2012.

مع أن الصفحة مستقلة رسميًا، وأصبحت لاحقًا تابعة للهيئة العامة للثورة السورية (منذ آب/ أغسطس 2011)، فقد كان يديرها على الأقل بعض الأعضاء المرتبطين بجماعة الإخوان المسلمين في الشتات، ولا سيما المتحدث السابق باسم الصفحة، الناشط المقيم في السويد فداء الدين طريف السيد عيسى (Almqvist, 2013, p. 55; ICG, 2011, p. 8; Lund, 2012, p. 51).

بين عامي 2011 و2013، كانت الصفحة المنتجَ الرئيس للشعارات خلال التظاهرات بعد صلاة الجمعة. وهكذا من خلال تحليل الاستراتيجيات الخطابية لتشكيل الجماعة التي تنشرها هذه الصفحة، والاستخدام الذرائعي التدريجي للشكل المبتذل أو اليومي للتضامن الطائفي حول السنّة، وتنفيذ الشعارات على الأرض، نتوصّل إلى أن الطائفة نزعة اجتماعية متبقية كامنة تُفَعَّل صراحة.

(7) - مقابلة مع سليمان من دمشق؛ واشنطن العاصمة، الولايات المتحدة الأميركية، 16 آب/ أغسطس 2014.

(8) - مقابلة مع غسان من مخيم اليرموك؛ واشنطن العاصمة، الولايات المتحدة الأميركية، 16 آب/ أغسطس 2014.

شعارات الجمعة: التقاء مساحات الاحتجاجات خارج الإنترنت وعبرها

خلال مرحلة الانتفاضة التي يغلب عليها الطابع السلمي (آذار/ مارس - أيار/ مايو 2011)، استخدمت الصفحة استراتيجية طمس الحدود للترويج ونشر الشعارات الشاملة والوطنية. لكن منذ أيار/ مايو 2011، طور مديرو الصفحة عملية لاختيار هذه الشعارات، من خلال نشر اقتراع ودعوة السوريين للاختيار من بين شعارات مختلفة. بين عامي 2011 و2013، كانت الصفحة المصدر الرئيس لاختيار أسماء (146) شعارًا ليوم الجمعة. بين 18 آذار/ مارس و17 حزيران/ يونيو 2011، وباستثناء الشعار المثير للجدل الأول «جمعة القبائل» في 10 حزيران/ يونيو الذي كان محاولة فاشلة لتعبئة مجموعات متجانسة افتراضيًا على أساس الانتماء القبلي، دعت شعارات الجمعة إلى تعريف/ هوية وطنية سورية شاملة من خلال تمثيل كل أطياف المجتمع السوري. على سبيل المثال، في 22 نيسان/ أبريل 2011، كان الشعار هو «الجمعة العظيمة» التي تزامنت في سورية مع الجمعة العظيمة للمسيحيين الشرقيين، ذكرى صلب المسيح وموته في الجلجلة. وفي 20 أيار/ مايو 2011 كان الشعار هو «آزادي" المرادف الكردي للحرية، وفي 17 حزيران/ يونيو 2011، كان الشعار هو "جمعة الشيخ صالح العلي" الشخصية البارزة العلوية الذي قاتل الانتداب الفرنسي وقاوم تقسيم سورية.

نقلت كل هذه الشعارات صورة «السوري» المتخيّل. ومع ذلك، في حين إن هذه اللغة تبدو أكثر شمولية من الشعارات الإسلامية والعسكرية الصريحة اللاحقة، فإنها تفترض ضمنيًا على مستوى أعمق تقسيم المجتمع إلى طوائف أو مجموعات إثنية متجانسة. بكلمات أخرى: كانت لغة مناهضة الطائفية في الاحتجاجات على الأرض هي نفسها التي تُبرز عن غير قصد نموذجًا معينًا من التعايش الطائفي، وهو ما يشير إلى خطوة خطابية نحو استغلال الهويات/ التعريفات الطائفية المبتذلة، وتفعيل الطائفة بوصفها نزعة اجتماعية متبقية. وبالفعل، وقعت حوادث عنف متفرقة من قبل المتظاهرين، وطرِحت شعارات طائفية (مناهضة للعلويين، ومعادية للشيعة) خلال تلك المدة في حمص ودرعا وحماة وجسر الشغور. ومع ذلك، فقد رفضها الناشطون بالكامل[9]، أو حرّروها، أو لم يُبَلَّغ عنها على الإطلاق (Bishara, 2013, p. 324–326; Daher, 2019, p. 46–47; Lynch et al., 2014a, p. 9, 12; Satik, 2013, pp. 404–408, Shahoud, 2017, pp. 74–75).

في خليط من التفكير بالتمني، وتوقع انهيار موشك للنظام السوري، وخوف من استمرار الاتهام الطائفي وابتعاد مؤيدين محتملين محليين أو غير محليين، قام كثيرٌ من الناشطين برومنطقة/ إضفاء الطابع الرومنطيقي على الانتفاضة، من خلال التقليل من أهمية أو حتى إنكار وجود تصاعد العناصر المتشددة المحافظة التي عُبِئت على أساس طائفي. أنتج بعض الفاعلين المحليين نظريات المؤامرة الخاصة بهم، لتجنب أي نقد قد يؤكد بعض اتهامات النظام التي ظنوا أنها ستنزع الشرعية عن قضيتهم. ومع ذلك، كان هذا النوع من سياسات الإنكار مهمًا، لأنه أبعد المؤيدين المحتملين للانتفاضة، ودفع مزيدًا من السوريين ذوي المواقف المتناقضة (Wedeen, 2019) إلى عدم الثقة في تقارير الناشطين وتفضيل الاستقرار. كثيرٌ من الوسطيين المتناقضين المعروفين بالرماديين رُبطوا بالوضع الراهن لأسباب لم تتناولها إلى حد كبير مواقف الباحثين الذين يعتمدون بصورة شبه حصرية على شهادات الناشطين أو يقللون من تعقيد الصراع إلى جانبه الطائفي.

(9) - «صحفيو مقاطع (فيديو) السوريون يقاتلون من أجل قول «الحقيقة «، أخبار القناة الرابعة، 27 آذار/ مارس 2012، (https://www.channel4.com/news/syrias-video-journalists-battle-to-tell-the-truth); (https://www.manibenchelah.com/syrias-video-journalists-battle-to-tell-the-truth).

الشعار الثاني المثير للجدل كان في 22 تموز/ يوليو 2011، عندما تسامح إداريو الصفحة مع تلاعب خلال تصويت ذلك الأسبوع الذي روّج لـ «جمعة أحفاد خالد بن الوليد»[10] على خيار «جمعة الوحدة الوطنية»، الذي اقترحته لجان التنسيق المحلية العلمانية. صوّت المشاركون في هذا الاستطلاع على النحو الآتي: (50,6) في المئة لصالح جمعة أحفاد خالد بن الوليد، و (43,3) في المئة لصالح جمعة الوحدة الوطنية، و(6,1) في المئة لصالح ست شعارات أخرى (Al-Mustafa, 2012). عارض كثير من الناشطين الليبراليين واليساريين والعلمانيين مؤيدي هذا الخيار، لأن الصفحة تلاعبت بالعملية من خلال عدّ أصوات الحسابات المزيفة، ونشر مقاطع (فيديو) مصورة، وإثارة المظالم للتأثير في خياراتهم، وبسبب سياق الأحداث العنيفة خلال ذلك الأسبوع بأكمله أيضًا. حاولت الصفحة حل المشكلة بدمج الشعارين في واحد «جمعة أحفاد خالد بن الوليد من أجل الوحدة الوطنية»، إلا أن غالبية متظاهري يوم الجمعة الذين ظهروا في وسائل الإعلام، حملوا لافتات كتِب عليها «جمعة أحفاد خالد بن الوليد»، وأثرت عملية التصويت برمتها في صدقية الصفحة بين المعارضة العلمانية والناشطين المنحدرين من خلفية الأقليات. والأهم من ذلك، تصاعد التوتر الطائفي في حمص خلال ذلك الأسبوع، بعد اكتشاف جثث مشوهة لثلاثة علويين في حمص بشارع الحضارة في 16 تموز/ يوليو 2011. أطلق بعض الناشطين المحليين على هذا الحدث اسم «يوم العار»، لأنه أطلق العنان لسلسلة بشعة من القتل الطائفي السنّي-العلوي بين محرضين محليين في حي الزهراء (المصنَف بأنه علوي) وحي الخالدية (المعرّف بأنه سني)[11]. يسلط هذا المثال السياقي الضوء على كيفية استخدام الجهات الفاعلة غير المحلية الموارد المتاحة لخدمتها (في هذه الحالة، الوصول غير المقيد إلى وسائل الإعلام)، لفرض رواية الانقسام الرئيس على أسس طائفية أو إثنية وتضخيم ديناميات التطييف على المستوى المحلي من دون استخدام اللغة الطائفية صراحة.

خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الانتفاضة، تجنبت الصفحة الخطاب الطائفي المباشر، وركزت على الشعارات المستوحاة من «الربيع العربي» المطالبة بالديمقراطية والحرية والمساءلة، فضلًا عن الاستهزاء بالرواية الرسمية للنظام. مع تورط involvement الجيش السوري (نيسان/ أبريل 2011)، وتصاعد العنف بين حزيران/ يونيو وآب/ أغسطس 2011، بدأت المطالب بالتغيير الديمقراطي و«سورية لكل السوريين» بالتراجع، وطغى عليها خطاب الكراهية، وبدأ نمط طائفي متشدد بصورة متزايدة في الهيمنة على المناقشات والتفاعلات مع الصفحة التي تشيطن «الآخر» على أنه «كافر» أو «نصيري» أو «مجوسي إيراني»، وكلها مصطلحات مهينة للعلويين والشيعة والإيرانيين (Al-Mustafa, 2012). استخدم روّاد الأعمال السياسيون الصفحة لاتباع استراتيجية ذرائعية مفيدة لتشكيل المجموعات، حُدِّدت على أساس العضوية ذات الترميز الطائفي، وأدّت إلى إسكات المكوّن العلماني للمعارضة وتهميشه، وكذلك الجهات الفاعلة التي عارضت عسكرة الانتفاضة.

شارك غسان عندما كان عضوًا في لجان التنسيق المحلية في عملية اقتراح واختيار شعارات الجمعة التي ستنشرها الصفحة، وفي ذلك يقول: «روّجت لجان التنسيق المحلية لجميع الشعارات القومية والعلمانية والموحِدة. كل أسبوع كانت اقتراحاتنا

(10) - خالد بن الوليد هو من أصحاب النبي محمد ودفن في حمص.

(11) - ملاحظات ميدانية، دمشق، 23 تموز/ يوليو 2011؛ ساتيك، 2013، ص. ص 404-408؛ المصطفى، 2012. للحصول على رواية مفصلة للعنف الطائفي في حمص كما شهده محمد صالح، انظر صالح، 2019. «محادثة مع محمد (أبو علي) صالح (2): الطائفية ومذبحة ساحة الساعة في حمص) ، مقابلة مع عمر عباس. صالون سورية، 14 حزيران (https://tinyurl.com/w2qeznb).

تسبب الإحراج/ نشازًا (مثل خروف أسود) [أي توحيد الشعارات الوطنية] بين قطيع من الخراف البيضاء [أي الشعارات الإسلامية الصريحة]. فازت الشعارات الإسلامية والمثيرة للجدل في معظم الوقت، وأصبحت في ما بعد هي المهيمنة. اقترحت الهيئة العامة للثورة السورية والصفحة نفسها هذه الشعارات غالبها. كرهت الهيئة العامة للثورة السورية والصفحة الشعارات التي اقترحتها لجان التنسيق المحلية. كان لدى الهيئة العامة للثورة السورية تمويل ضخم بملايين الدولارات من قطر، يمكنهم تحمل إنفاق كثير من المال للترويج لجدول أعمالهم، وكان ثمة اتصال وثيق بين الهيئة العامة للثورة السورية والصفحة»[12].

بعد نجاح المتمردين الليبيين في طرد معمر القذافي من طرابلس بمساعدة الحملة الجوية التي يقودها حلف شمال الأطلسي/ الناتو (21 آب/ أغسطس 2011)، بدأت الصفحة في الترويج لخطاب متشدد لحشد الدعم الشعبي للتدخل العسكري ولمنطقة حظر الطيران تحت ذريعة حماية المدنيين (ICG, 2012, p. 2; Lund, 2012, p. 53). وهكذا، اختارت الصفحة شعارات الجمعة مثل الحماية الدولية (9 أيلول/ سبتمبر 2011)، وجمعة منطقة حظر الطيران (28 تشرين الأول/ أكتوبر 2011)، والمنطقة العازلة هي مطلبنا (2 كانون الأول/ ديسمبر 2011)، والتدخل العسكري الفوري (16 آذار/ مارس 2012)، وظهرت تلك الشعارات في التظاهرات، وقد طالبت بالتدخل وتدويل الأزمة.

تبّنت لجان التنسيق المحلية والهيئة العامة للثورة السورية وكثير من الناشطين هذا الخطاب المتشدد تدريجيًا لحماية المدنيين بأي وسيلة ضرورية؛ ومع ذلك، فإن التعليقات على منشورات الصفحة بعد أيلول/ سبتمبر 2011 عكست بصورة متزايدة نزعة طائفية متشددة تساوي الشبيحة مع العلويين كطائفة (Al-Mustafa, 2012). وعلى الأرض، بين آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر 2011، انتقم المحرضون المحليون من الفظائع التي ارتكبتها قوات الأمن (ذات الأغلبية الساحقة من العلويين) في حمص، من خلال شنّ سلسلة من الهجمات ذات الدوافع الطائفية التي استهدفت العلماء والأطباء من غير السنة، وكذلك الأفراد في الأحياء المختلطة (Bishara, 2013; Satik, 2013).

وبحسب ناشط علوي محلي: «بعد شهر تموز/ يوليو 2011، تكثفت الجرائم الطائفية مجبرةً قلّةً من العائلات الشيعية في البياضة [المعرّف بأنه حيّ سنيّ] على مغادرة منازلها. غيّرت أعمال العنف هذه التركيبة السكانية لذلك الحي. لكن بعض المناطق ظلت مختلطة مثل الوعر والجامعة وغيرهما. أعيش في أحد هذه الأحياء المختلطة. في أيلول/ سبتمبر، تلقيت إنذارًا نهائيًا من زعيم شاب لجماعة إسلامية محلية يأمرنا بإخلاء منزلنا في عشرة أيام، لأنهم لا يريدون أن يعيش غير السنّي في الحي ... الحمد لله، تدخل شخص [سني] طيب، وأجبرهم على التراجع وتركنا وشأننا»[13].

تجاهل الناشطون المحليون والقنوات الفضائية العربية التي ركزت حصرًا على الانتهاكات التي ترتكبها قوات الأمن والموالون (الذين يعدون من العلويين والأقليات) إلى حد كبير التقاريرَ التي تتحدث عن هذه الديناميات العنيفة الناجمة عن ذلك، ودور المحرضين المحليين المسلحين الذين عملوا كأمراء حرب، وناشدوا الأطر الطائفية. إضافة إلى ذلك، تبنّت الصفحة موقفًا إقصائيًا ومتشددًا ضدّ الأصوات في المعارضة التي كانت ناقدة لدعوات التدخل العسكري الأجنبي والخطاب الطائفي المتصاعد وسط المعارضة في مناطق معينة. لذلك، في أعقاب مؤتمر هيئة التنسيق الوطني في دمشق (17 أيلول/ سبتمبر 2011) الذي أعلن التزامه

(12) - مقابلة مع غسان، من مخيم اليرموك، واشنطن العاصمة؛ الولايات المتحدة الأميركية، 9 آب/ أغسطس 2014.

(13) - مقابلة عبر المسنجر مع إبراهيم، حمص؛ 10 حزيران/ يونيو 2018.

بـ «اللاءات الثلاثة» (لا للعنف، لا للطائفية، لا للتدخل)، سعت الصفحة إلى نزع الشرعية عن هيئة التنسيق الوطنية، من خلال حشد متابعي الصفحة على (فيسبوك) للتصويت لشعار الجمعة الجديد (11 تشرين الثاني/ نوفمبر 2011)؛ «هيئة التنسيق الوطنية لا تمثّلنا»، إلى جانب الشعار الرئيس «جمعة تجميد عضوية سورية في جامعة الدول العربية». في الواقع، حملت الاحتجاجات معظمها خلال يوم الجمعة لافتات تحمل هذه الشعارات (الشكل 3) Figure 3.[14] وبدلًا من ذلك، دعمت الصفحة المجلس الوطني السوري الجديد الذي شكله سوريون في الشتات بدعم من الجهات الفاعلة غير المحلية (مثل حكومتي قطر وتركيا)، من خلال اقتراح شعار "المجلس الوطني [السوري] يمثلني"، لتظاهرات الجمعة في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2011. وقد شجعت هذه الاستراتيجيات الخطابية على ضرورة الدعم غير المحلي (الفردي، الإقليمي، الدولي) بكونه البديل الوحيد الحتمي والأخلاقي، وقللت من أهمية أي بدائل غير عنيفة أو هاجمتها صراحة.

الشكل 3

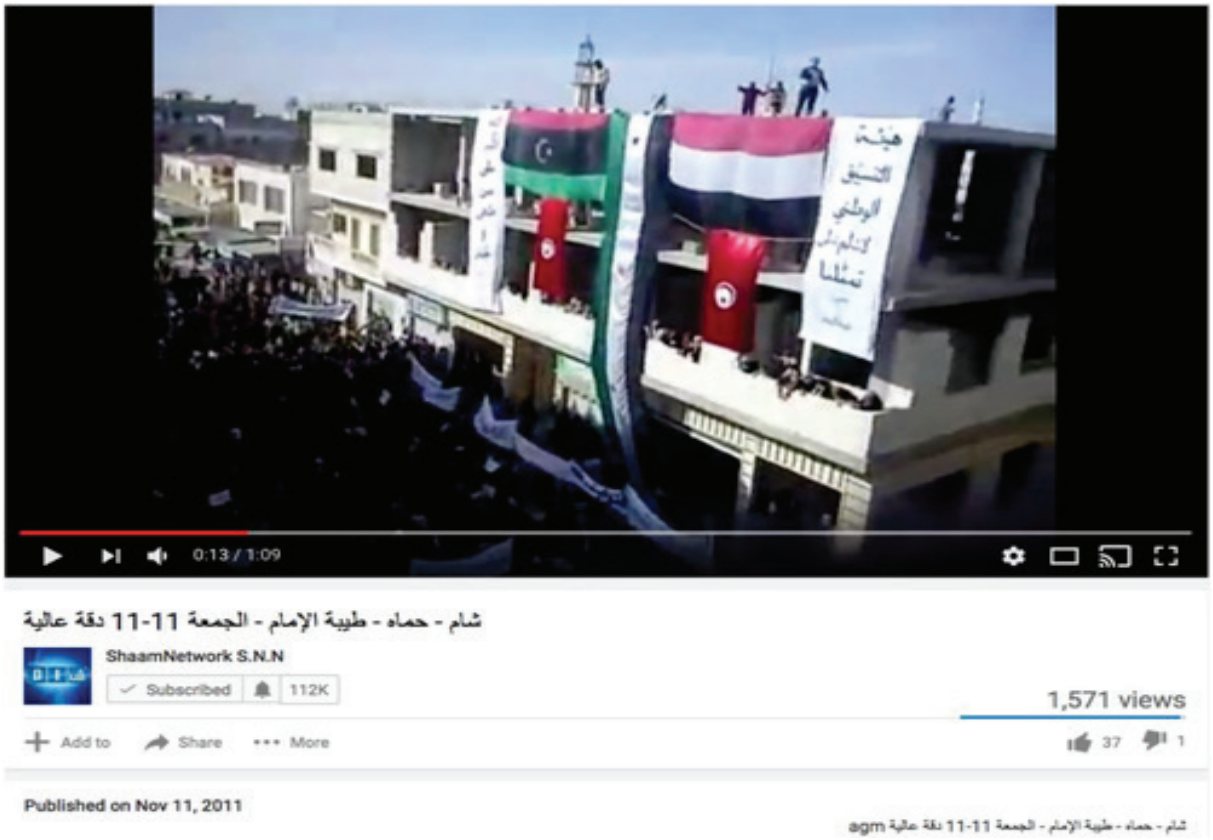

لقطة شاشة من مقطع (فيديو) لتظاهرة طيبة الإمام، يوم الجمعة، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 2011. إلى جانب الشعار الرئيس «جمعة تجميد عضوية سورية في جامعة الدول العربية» حمل المتظاهرون في مناطق كثيرة من سورية لافتات عليها شعار اقترحته الصفحة «هيئة التنسيق الوطنية لا تمثّلنا. [يمكن الاطلاع على الشكل الملون على الموقع: wileyonlineli-brary.com].

(14) - «شام، حماة، طيبة الإمام، الجمعة 11 11-»، مقطع (فيديو) بالعربي، 1:09، (يوتيوب)، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، (https://tinyurl.com/wzzpudm).

ومع أن العسكرة والطائفية ظاهرتان مختلفتان لا تسيران دائمًا جنبًا إلى جنب، زادت عملية العسكرة من مستويات الاستقطاب، ومكّنت الجماعات الأكثر تطرفًا والجهات الفاعلة غير المحلية. نشرت هذه الجهات الفاعلة لغة طائفية لحشد الدعم مع تأثير مزيد من عسكرة الصراع.

من طمس الحدود إلى صنع الحدود

بحلول الأسابيع الأولى من عام 2012، تجاوزت الصفحة ما كان يعدّ حتى ذلك الحين خطًا من المحرمات تخوفًا من التأخير في التدخل العسكري الخارجي المأمول لوقف فظائع النظام ضد المتظاهرين السلميين في سورية،. واقترحت شعارًا مثيرًا للجدل لتظاهرة الجمعة في 27 كانون الثاني/ يناير 2012، وهو «ما قبل إعلان الجهاد» ضد النظام السوري، لكنها اضطرت إلى تغييره، بضغط من الناشطين، إلى «الحق في الدفاع عن النفس». تزامن هذا التحوّل الخطابي مع ظهور جبهة النصرة وكتائب أحرار الشام، وهما أول مجموعتين مسلحتين سلفيتين بارزتين في الانتفاضة (ICG, 2012, p. 2). كانت جبهة النصرة في ذلك الوقت هي الفصيل المعارض البارز الوحيد الذي تبنى علانية التفجيرات الانتحارية، وقد أعلنت مسؤوليتها عن سلسلة من التفجيرات الانتحارية البارزة في دمشق وحلب، في أوائل عام 2012. بخلاف الجماعات المسلحة المعارضة الأخرى، تبنّت جبهة النصرة خطابًا طائفيًا متشددًا غير اعتذاري/ تبريري، لتصوير نفسها على أنها المدافع عن «المجتمع السنّي» و«المسلمين»، ضدّ «العدو العلوي» و «عملائه الشيعة» (ICG, 2012, p. 11). من الناحية الخطابية، غيّر كثير من الناشطين عبر الإنترنت وعلى الأرض (منهم علمانيون) استراتيجيات أخباره، بناءً على جماهيرهم المستهدفة (Lynch et al., 2014a, p. 10)، وذلك عندما ناشدوا الدعم الغربي، وصاغوا رواية جيدة مقابل أخرى شريرة حول حركة ديمقراطية ضد الاستبداد، وأنكروا وجود جبهة النصرة والمسلحين الجهاديين الأجانب، وقالوا إنها مجرد تلفيق من النظام، وبالغوا في تقدير دور الجيش السوري الحرّ العلماني المتخيّل. وعندما كان الجمهور المستهدف يتحدث اللغة العربية، نشر الناشطون ووسائل الإعلام قصصًا تخدمهم حول نموذجين من جبهة النصرة بحسب السياق. وصفت إحدى الروايات الجماعة على أنها جزء لا يتجزأ من الثورة التي كانت تدافع عن المجتمع «السني» ضد وحشية النظام «العلوي»، وسط اللامبالاة الدولية؛ في حين انتشرت رواية أخرى عندما وقعت الهجمات الانتحارية، ووسمت جبهة النصرة بأنها منظمة من صنع النظام لتنفيذ تفجيرات تخدم مصالحه ونسخته من «الحرب على الإرهاب»[15].

وفقًا لذلك، جنبًا إلى جنب مع كثير من الإسلاميين والناشطين العلمانيين في المعارضة، حوَّل مسؤولو الصفحة استراتيجياتهم الخطابية من طمس الحدود إلى رسم الحدود، ودعموا الجماعات الجهادية بصورة براغماتية، وعملياتها ضد النظام. ونتيجة لذلك، تحت شعار «لا إرهاب في سورية إلا إرهاب الأسد»، احتج كثير من السوريين في 14 كانون الأول/ ديسمبر 2012، على قرار الولايات المتحدة بوضع التنظيم على اللائحة السوداء كمجموعة إرهابية، لأنها أعطت الأولوية لاستهداف أقوى جماعة مناهضة للنظام وأكثرها تنظيمًا في المعارضة السورية، وتغاضت عن انتهاكات حقوق الإنسان التي يرتكبها النظام.

ترافقت هذه الرواية المتشددة مع تصعيد للعنف الطائفي[16]، وعملية عسكرة متسارعة على الأرض. حيث هبطت أكثر من (160) رحلة شحن عسكرية

(15) - ملاحظات ومحادثات عامة موثقة على (فيسبوك) بين كانون الثاني/ يناير 2012 - كانون الأول/ ديسمبر 2013. انظر أيضًا شحود (2017), p.116.

(16) - ومن الأمثلة على المجازر الطائفية التي ارتكبتها الميليشيات الموالية للنظام كرم الزيتون (حمص، 9 آذار/ مارس 2012)، الحولة (حماة، 25 أيار/ مايو 2012)، القبير (حماة، 6 حزيران/ يونيو 2012)، بينما مجازر كرم اللوز. (حمص، 13 آذار/ مارس 2012) والعقرب (حماة، 11 كانون الأول/ ديسمبر 2012) ارتكبتهما المعارضة المسلحة (Barout, 2012, pp. 236–239; Phillips, 2015, pp. 359–360)..

من جهات فاعلة غير محلية (بشكل رئيس من حكومتي قطر والمملكة العربية السعودية) مخصصة للجماعات الإسلامية السورية، في تركيا والأردن، بين كانون الثاني/ يناير 2012 وآذار/ مارس 2013 (Barakat, 2012; Chivers & Schmitt, 2013). وتكثفت بين كانون الثاني/ يناير وحزيران/ يونيو 2013 عملية عولمة التعريف/ الهوية الطائفية المتشددة، وعكست الشعارات بصورة متزايدة التقاء الديناميات من القاعدة إلى القمة (المستوى المحلي والشعبي) ومن أعلى إلى أسفل (المستوى غير المحلي ومستوى النخبة). نُظِمت الاحتجاجات المحلية تحت الشعار الإقصائي الذي طرحته الصفحة «جمعة حماية الأغلبية» (26 نيسان/ أبريل 2013) (الشكل 4 Figure 4)، وردّت الجهات الفاعلة غير المحلية (رواد الأعمال الطائفيون، شبكات التمويل الخاصة المتمركزة في الخليج من المحافظين دينيًا والجهات الفاعلة الإقليمية) على تورط حزب الله اللبناني في هجوم القصير (19 أيار/ مايو 2013) بالدعوة إلى الجهاد العالمي ضدّ الشيعة والأقليات. على سبيل المثال، في 31 أيار/ مايو 2013، في خطوة غير مسبوقة على قناة الجزيرة بالعربي، ندّد الشيخ يوسف القرضاوي بالشيعة والعلويين، ووصفهم بالزنادقة وأعداء الأمة الإسلامية، وبأنهم " كفار أسوأ من اليهود والمسيحيين (Hassan, 2013, p. 11).

الشكل (4)

جمعة "حماية الأغلبية" (26 نيسان/ أبريل 2013). لافتة من كفرنبل، بتاريخ 1 آذار/ مارس 2012، تتساءل: "هل حماية الأقليات تعني إبادة الأغلبية؟" (المصدر: المحفوظات الشخصية للمؤلف) [يمكن الاطلاع على الصورة الملونة على الموقع: wileyonlinelibrary.com

وظفت هذه الخطابات الاستفزازية التي حظيت بتغطية إعلامية واسعة النطاق من التعريف/ الهوية الطائفية المبتذلة على المستوى الإقليمي، من خلال استخدام التمثيلات «الجماعية» لتعبئة الشبكات العالمية للجمعيات الخيرية الإسلامية والمقاتلين الأجانب. وقد أعيد إنتاج مثل

هذه التصورات عن الصراع من قبل الجماعات الإسلامية المسلحة المنتشرة التي تعمل تحت مظلة الجيش السوري الحر، واعتمد كثير منها التسميات السلفية والشعارات والخطابات ذات الدلالة الدينية السنية في وقت مبكر من صيف وخريف عام 2011. ومع ذلك، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن كل هذه الجماعات مدفوعة بالالتزام الصادق بالمثل الإسلامية كما في بعض الحالات، وإنما يعكس محاولة براغماتية لتلبية مطالب المانحين الأثرياء والمحافظين المقيمين في الخليج. في الواقع، أُرسِلت معظم الأموال التي تتلقاها الجماعات المسلحة في مناطق مثل حمص وإدلب بحلول أيار/ مايو 2012 إلى الجماعات المسلّحة السلفية المحلية، الأمر الذي غذى نزعة إسلامية وطائفية متنامية، ودفع بصورة متزايد أعضاء جماعات الجيش السوري الحر سيئة التجهيز والتمويل إلى الانضمام إلى هذه المجموعات، أو إلى تقليد استراتيجياتها الخطابية من خلال تبني رموز مرتبطة بالسنة(ICG, 2012).

لم تكن قوة الرسالة الطائفية وعولمة التعريف/ الهوية الطائفية المتشددة مرتبطان برؤيتها فحسب بل كانا مرتبطين أيضًا بصدقيتها التي عُظمت من خلال وسائل الإعلام العربية الممولة من الخليج والشبكات السلفية (Watkins, 2019). كان كثيرٌ من الصحافيين المرتبطين بجماعة الإخوان المسلمين يتعاملون مع مكتب قناة الجزيرة في سورية[17]، وسيطروا على تغطية الانتفاضة السورية من خلال منح وقت طويل على الهواء للمتعاطفين معهم الذين صوروا الصراع في كثير من الأحيان على أنه جزء من قطبية ثنائية إقليمية طائفية، بينما يتغاضون عن الفظائع التي ارتكبتها المعارضة، وينشرون الادعاءات المبالغ فيها والشهادات المفبركة (Al-Qassemi, 2012; Cherkaoui, 2014, p. 27).

لاحظ لينش وآخرون (Lynch et al., 2014b, p. 5)، استنادًا إلى دراسة مجموعة بيانات على (تويتر) متعلقة بسورية بين عامي 2011 و 2013 أن هناك تحولًا خطابيًا كبيرًا باتجاه «التبرعات» خلال الأشهر الثمانية الأولى من عام 2012، يعكس الدور المتنامي لرجال الأعمال الطائفيين الإقليميين والشخصيات الدينية في الخليج (خاصة الشخصيات السعودية والكويتية) (Dickinson, 2013)، وبحلول عام 2013، نمت بسرعة انتشار التغريدات حول "الجهاد" في سورية. باختصار: ترافقت طائفية المجالات العامة الافتراضية (عبر الإنترنت) خلال المدة التحولية 2011-2013 مع عمليات فعلية على الأرض، حيث تكثفت نتيجة للعنف المميت للنظام وتورط حزب الله وإيران في الصراع[18]. أنتجت هذه الديناميات الظروف اللازمة للتعريف/ الهوية الطائفية المتشددة التي جمعت بين التعريف الخاص داخل الدولة، والمستوى العابر للدولة/ فوق الدولة.

(17) - محادثة مع ناشطين في القاهرة في 13 نيسان/ أبريل 2012.

(18) - وكمثال مبكر على النداء إلى التأطير الطائفي الإقليمي، زعم بعض الناشطين السوريين زورًا، على قناتي العربية والجزيرة، أن إيران وحزب الله متورطان في الهجوم على المتظاهرين السنة في درعا خلال الأسابيع الأولى من الانتفاضة. (Fieldnotes, 23 March 2011; Shahhoud, 2017, pp. 20–21).

الخاتمة

استخدم السياسيون والناشطون والصحافيون وحتى بعض الأكاديميين "الطائفية" كثيرًا، لشرح أسباب الانتفاضة السورية والحرب الأهلية اللاحقة، وديناميتهما. وبدلًا من استخدام "التصنيفات الجامدة" (Fujii, 2009, p. 8)، مثل "الطائفية" و"العسكرة"، تفحصتُ عمليات "التطييف" و"العسكرة" لتحليل الظواهر الاجتماعية والسياسية الدينامية تحليلًا مناسبًا. في البيئات الدينامية (مثل الإبادة الجماعية، والحركة الاجتماعية، والثورة، والحرب الأهلية) لا يمكن للتصنيفات الثابتة أن تلتقط بالكامل العلاقات المتغيرة للجهات الفاعلة، والسلوكات، والخطابات، ووجهات النظر، والدوافع، والتعريفات/ الهويات، ولا يمكنها التقاط المصادر الداخلية للتغييرات. أقترح أنه في أعقاب عسكرة الانتفاضة السورية التي بدأت محليًا بصورة متقطعة في صيف 2011، كُثِّفت ديناميكيات التدويل، وظهرت استراتيجيات جديدة لممارسات التصنيف والتعرف على الإنترنت وعلى أرض الواقع. خلق هذا التحول الجذري، مصحوبًا باستخدام النظام المفرط للعنف، فرصة لرجال الأعمال الطائفيين والفاعلين الإقليميين (فوق/ غير المحليين) لتطييف الصراع، من خلال تأطير الصراع بمصطلحات ذات ترميز طائفي على القنوات الفضائية العربية، ومن خلال دعمهم الانتقائي الجماعات الإسلامية مع التوجه الطائفي لمصالحهم السياسية الخاصة. تتيح لنا هذه المقاربة الدينامية والعملياتية والعلائقية processual للسياسات الطائفية والإثنية والحروب الأهلية استكشاف استراتيجيات تكوين المجموعات، وكيفية استخدام شدة التعريف/ الهوية الطائفية، وتحويلها بصورة متزايدة من التعريف/ الهوية الطائفي المبتذل إلى التطرف الذي بلغ ذروته في هيمنة المنظمات الجهادية في سورية خلال المدة التحولية/ التحول الجذري 2011-2013. إضافة إلى ذلك، بدلًا من إعادة إنتاج المقاربات المتمحورة حول الدولة والبحث عن تفسير للسببية الميكانيكية الخطية، تولي هذه المقاربة التفسيرية interpretivist الانتباه إلى تعقيد العمليات قيد الدراسة، والعمليات الاجتماعية للحرب الأهلية، والاستجابات المتباينة وفاعلية المتظاهرين على الأرض وناشطي الإنترنت أيضًا.

جادلتُ بأن الرؤية المتزايدة للأطر الطائفية وإبعاد الجهات الفاعلة غير الطائفية كانا جزءًا من استراتيجيات رسم الحدود التي اتبعها الفاعلون المحليون وغير المحليين الذين استفادوا من عنف النظام والتأطير الطائفي الإقليمي، وسعوا لاحتكار التمثيل الرمزي للانتفاضة. كانت فاعلية عملية التطييف مشروطة بتصاعد العنف نتيجة فشل نظام الأسد في احتواء النضال الشعبي، وتكتيكاته الوحشية، وعسكرة الانتفاضة، وتدويلها، وعولمة الشبكات الطائفية. لكن تصعيد العنف كان رهنًا أيضًا بنشر هذه الرموز والمشاعر التي وصلوا إليها. بهذا المعنى، من خلال استراتيجيات رسم الحدود، يُنتَج الصراع «الطائفي» بين الطوائف المفترضة/ المزعومة في سورية، ويُصوَّر على هذا النحو من خلال عمليات التشيؤ reification والتطييف والكتابات التي تحلل فئات الهوية أو تمثلها أو تدركها، مثل الطوائف والإثنية بوصفها كيانات جوهرية وحقيقية. إن دراسة هذه الديناميات والعمليات كإجمالٍ تاريخي ومحدد السياق، بدلًا من اختزالها إلى مجرد متغيرات مختَبرة وعوامل ميكانيكية يساهم في فهمنا ممارسات التشيؤ، وسبب تنشيط «الطائفة» سياسيًا، بكونها نزعة اجتماعية متبقية من بين البنى الكامنة الأخرى للشعور مثل التضامن الطبقي.

شكروتقدير

أنا ممتن جدًا لمحاوريّ السوريين الذين آثروني بقصصهم، ورحّبوا بي، وأثروا بحثي إثراءً لا يُقدّر. استفادت هذه الدراسة من التعليقات البنّاءة على المسودات المتعددة، وأدى ذلك إلى تحسين المقالة تحسينًا كبيرًا. إنني مدين بصورة خاصة لكلٍّ من ليزا ويدين وعمر ضاحي وبنيامين نولان، وكانت رؤاهم واقتراحاتهم وانتقاداتهم وخبراتهم لا تُقدّر بثمن. وأعرب عن امتناني للتعليقات على المسوّدات السابقة، من جيليان شويدلر وشون يوم ومارك لينش، خلال ورشة عمل نظمتها مجموعة تطوير البحوث لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا عام 2019، وأتقدّم بالشكر إلى المراجعين المجهولين محرري مجلة Nations and Nationalism على اقتراحاتهم المفيدة، وكذلك إلى كلٍّ من تيموثي باتشيرات، وأمل أحمد، وريبيكا هاملين، وروشيل ديفيس، ونوخت صاندال، ونيكولاس كسينوس، وسونيا ألفاريز، وريم تركماني، وبسام حداد، وكاتي الحايك، وميمي كيرك، ومروة الداودي، وجوديث غرانت، وميرا واتربوري، وتشارلي كاربنتر، وجيمي روين وإريك سيبرت وكانديس ترافيس وسيدانت إيسار. قُدِّمت نسخة سابقة من هذه المقالة في مؤتمر جمعيات الدراسات الدولية (ISA) لعام 2018، وفازت بجائزة أفضل ورقة بحثية لطلاب الدراسات العليا لعام 2019، عن الدِّين والعلاقات الدولية من جمعيات الدراسات الدولية (ISA).

Political Research

Social Research

Economic Research

Legal Research

Translations

Harmoon Center for Contemporary Studies

Harmoon ArŞtırmalar Merkezi

Doha, Qatar: Tel. (+974) 44 885 996

Istanbul, Turkey: Tel. +90 (212) 813 32 17 PO.Box: 34055

Tel. +90 (212) 542 04 05

www.harmoon.org